عِلْمُ التَّفْسِيرِ نَشْأَتُهُ وَأَقْسَامُهُ

بقلم

د/ حنفي عبد الحليم حنفي

تمهيد

علم التفسير من أجل العلوم وأرفعها شأناً وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً وأقواها صلة بأمور الدين والدنيا التى تهدى الناس إلى صلاح آخرتهم وسعادتهم فى دنياهم لأنه فهم لمقاصد الذكر الحكيم ، وعلم بتأويل مايهدف إليه القرآن الكريم . الذى نزل وحيا من السماء ليكون حجة يوم القيامة للمؤمنين الصادقين . وحجة على الجاحدين والمنكرين والكافرين. كما ورد فى القرآن الكريم :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً وأن الذين لايؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليما »(١) .

والتفسير فى اللغة :

التفسير هو الإيضاح والتبيين ، ومنه قوله تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا »(٢).

أى بياناً وتفصيلا ، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف

وقال صاحب لسان العرب « الفسر ، البيـــان ، فسر الشىء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسراً ، وفسره أبانه والتفسير مثله . . . ثم قال : الفسر : كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل(٣).

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩ ، ١٠

(٢) سورة الفرقان ٣٣

(٣) لسان العرب ٦ / ٣٦١

وقال أبو حيان : « ... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للإنطلاق تقول فسرت الفرس : عريته لينطلق من حصره وهو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري »[1] .

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقوله .

التفسير في الاصطلاح :

قال أبو حيان التوحيدي : التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب[2] .

وعرفه الزركشي : بأنه « علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه »[3] .

وعرفه بعضهم : بأنه « علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشريه »[4] .

والناظر لأول وهلة في هذين التعريفين الأخيرين ، يظن إن علم القراءات وعلم الرسم لايدخلان في علم التفسير ، والحق أنهما داخلان فيه وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات كقراءة « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً ...

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٣/١
(٢) تفسير أبو حيان ١٣/١ ، ١٤
(٣) الاتقان ١٧٤/٢
(٤) منهج الفرقان للشيخ محمد أبو سلامه ٦/٢

بضم الميم وإسكان اللام فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ « ومليكا كبيراً » و كقراءة « حتى يطهرن » .. بالتسكين فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ « يطهرن » بالتشديد ، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآنى فى المصحف فمثلا قوله تعالى : « أمن يمشى سوياً » يوصل « أمن » بغاير فى المعنى « أم من يكون عليهم وكيلا » بفصلها ، فإن المفصولة تفيد معنى « بل » دون الموصولة .

وعرفه بعضهم : بأنه « علم نزول الآيات وشئونها ، وأقاصيصها والأسباب النازله فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ، مفسرها وحلالها وحرامها ووعدها ، ووعيدها ، وأمرها ونهيها وغيرها وأمثالها »[1] .

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية فهو شامل لكل ما يتوقف عليه منهم المعنى ، وبيان المراد .

نشأة علم التفسير :

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين وكانت طريقة نزوله منجما على حسب الوقائع والأحوال ، ولقد أخذ القرآن الكريم بلب أصحاب العقول السليمة فأدركوا مواعظه ، وحكمه ووجدوا فيه شفاء للقلوب كما جاء فى القرآن الكريم « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »[2] .

ونزلت الآيات تترى على النبى ﷺ — حتى أوضحت معالم الحلال

(١) الاتقان ٢/١٧٤

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢

والحرام ، وبنت مكارم الأخلاق ورسمت طريق العدل وكيفية النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يقيم مجتمعاً إنسانياً سليما يطمئن فيه كل إنسان إلى حاضره ومستقبله حتى تم نزول القـــرآن ، وأتم النبى ﷺ رسالته ولحق بربه بالرفيق الأعلى وبعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ظهر قوم من المرتابين والكاذبين الذين ابتدعوا البدع وقالوا فى القرآن برأيهم وعلى حسب أهوائهم ، فضلوا وأضلوا لأنهم تكلموا عن كتاب الله بجرأة وافتراء على الله وعلى رسول الله ﷺ .

ومن هنا تصدى العلماء الصالحون الذين أنعم الله عليهم بفهم القرآن عن إيمان راسخ وعقيدة ثابتة وعلم جم ففسروا معانى الآيات القرآنية رائدهم فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ الذين فسروا للناس ما أبهم وماخفى عليهم فى فهم الكثير من الآيات القرآنية بما سمعوه من الأحاديث النبوية الشريفة .

الشروط التى لابد منها للمفسر

من الأمور التى لاريتاب فيها مرتاب أنه لايقال عن عالم فى فن من الفنون إنه صار به عالما إلا بعد أن يتأهـــل له وأن يتسلح بالأدوات والوسائل التى توصله إلى هذا العلم وهذا الأمر قد يأخذ منه وقتاً يطول أو يقصر هذا بالنسبة للعلوم بوجه عام[١] .

فإذا رجعنا إلى علم التفسير وهو أشرف العلوم نجد أنه من البدهى أن نقول : بأنه ليس من حق أى إنسان أن يفسر كتاب الله إلا إذا تسلح بأدوات لابد منها قبل الخوض فى تفسير كتاب الله تبارك وتعالى ولذلك

---

(١) نشأة التفسير ومناهجه فى ضوء المذاهب الإسلامية ٢٧ ، ٢٨

وضع العلماء شروطا لمن يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط فلابد أن يكون ملما بجملة من العلوم التي يرقى بها إلى هذا العمل الذي يعد أشرف عمل على وجه الإطلاق ، وهذه العلوم حصرها بعض العلماء في سبعة أوجه كما فعل أبو حيان في مقدمة تفسيره « البحر المحيط » وبعضهم أوصلها إلى خمسة عشر علماً وعلى رأس من قال بذلك الإمام السيوطي في كتابه الاتقان ، وهناك من زاد وأضاف على هذه العلوم علوما أخرى ولكن لانذكر إلا ما قاله الامام السيوطي في هذا الصدد مع بعض الايضاح والتصرف :

قال الامام السيوطي رحمه الله : (اختلف الناس في تفسير القرآن ، هل يجوز لأحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لايجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالما أديباً ، متسعاً في معرفة الأدلة . والفقه والنحو والأخبار والآثار وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روى عن النبي ﷺ .

ومنهم من قال يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسر إليها وهي خمسة عشرة علما .

أحدها : (اللغة) لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات » ثم إنه لابد من التوسع والتبحر في ذلك ، لأن اليسير لا يكفي ، إذ ربما كان اللفظ مشتركا . والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر ، وقد يكون هو المراد[1] .

---

(١) التفسير والمفسرون ١/٢٥٥

الثانى : النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره أخرج أبو عبيد . عن الحسن أى البصرى : أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته؟ فقال : حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها ، فيهلك فيها .

أقول : ومن لم يعرف النحو فربما يقع فى أخطاء فاحشة ، قد تؤدى إلى الكفر ، وذلك الرجل الذى قرأ قوله تعالى : إن الله برىء من المشركين ورسوله ، بجر « رسوله » فكاد يقع فى الكفر وهو لا يعلم فكان هذا من الأسباب الحاملة على وضع علم النحو[1] .

الثالث : « علم الصرف » .

وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ ، قال ابن فارس « ومن فاته المعظم لأن « وجد » مثلا كلمة مبهمة ، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها » .

وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال : « من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى : « يوم ندعوا كل أناس بامامهم »[2] جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أما لا تجمع على إمام »[3] .

الرابع : علم الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما ، كالمسيح[4] أهو من السياحة أو المسح فى الأول : سمى المسيح مسيحاً لكثرة سياحته .

---

(١) تفسير روح المعانى للألوسى ١٠/٤٧

(٢) الإسراء : ٧١

(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٥٦

(٤) فهو على الأول فعيل بمعنى فاعل ، وعلى الثانى فعيل بمعنى مفعول

وأما الثانى : فلأنه كان لا يسمع على ذى عامة إلا إذا برأ بإذن الله — تعالى ومثل ذلك أيضاً النبي ، أهو من النبأ بمعنى الخبر ، فهو مخبر — بكسر الباء عن الله ، أو مخبر — بفتح الباء — منه أو هو من النبوة بمعنى الرفعة وليس من شك فى أن المعنى يتغير بتغير أصل الاشتقاق[1] .

الخامس والسادس والسابع :

(علوم البلاغة الثلاثة) المعانى والبيان والبديع لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى وبالثانى خواصها من حيث إختلافها بحسب وضـــوح الدلالة وخفائها وبالثالث — وجوه تحسين الكلام يقول السيوطى عن هذه العلوم الثلاثة : هى من أعظم أركان المفسر لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز ،

يقول السكاكى : أعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وقال ابن الحديد أعلم أن الفصيح الأفصح، والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه[2] .

الوجه الثامن : علم القراءات : إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

يقول الأستاذ الدكتور / محمود بسيونى فوده : ومما يؤسف له حقاً أن بعض المفسرين وقعوا فى ذلل وخطأ شديدين فنجد أحد المفسرين يرجح قراءة متواترة على قراءة متواترة وهذا خطأ شديد لأن القراءتين

---

(١) الاسرائيليات والموضوعات للشيخ/ محمد بن محمد أبو شهبه

(٢) أنظر الاتقان ١٨١/٢

المتواترتين قرآن أنزل على رسول الله ﷺ وليس لأحد من الناس أن يفعل ذلك بحجة واهية أن النحويين قال هذا هو تنكيس لواقع الأمر.

فالقواعد النحويه أسست وقعدت من القرآن وما ينبغى بل ولايجوز أبداً أن تقعد عليه.

والأقدح من ذلك أن هناك من المفسرين — وممن له مكانته فى التفسير من يرجح قراءة غير متواترة على قراءة متواترة وهذا الخطأ إما عن جهل بالقراءات والقراء، وإما عن عمد لهوى أو تعصب مذهبى وكل ذلك مردود فالأصل هو النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ[1].

التاسع: علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى، وما يجوز، وما يستحل، وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالذوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات[2].

العاشر: «علم أصول الفقه».

لأن به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

يقول أبو حيان فى ذكر هذا العلم كوجه من وجوه معرفة المفسر لعلوم يتأهل بها لتفسير القرآن[3].

الحادى عشر: علم أسباب النزول، وعلم القصص والأخبار لأن بمعرفة سبب النزول يعرف المعنى المراد من الآية، كما أنه يزيل الإشكال

---

(١) نشأة التفسير ومناهجه للاستاذ الدكتور / محمد بيصونى فوده ٣٥

(٢) التفسير والمفسرون الدكتور/ محمد حسين الذهبى ١/٢٥٦

(٣) تفسير البحر المحيط ٦/١

عن بعضها ، ويبين حكم الله فى التشريع ، وبعلم القصص يعلم ما هو من الاسرائيليات التى دست فى الرواية الاسلامية وما ليس منها وما هو حق وما هو باطل .

« الثانى عشر » : علم الناسخ والمنسوخ ، وهو مهم المفسر ، وإلاوقع فى خطأ كبير .

« الثالث عشر » : علم الفقه إذ به يعرف مذاهب الفقهاء ، ومن احتج منهم بالآية ومن لم يحتج بها وطريقة كل منهم فى فهم الآية والأخذ بها أو الإجابة عنها .

« الرابع عشر » : علم الأحاديث والسنن والآثار المبينة لتفصيل المجمل ، وتوضيح المبهم ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق إلى غير ذلك من وجوه بيان السنة للقرآن[1] .

الخامس عشر : علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بقوله تعالى : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله »[2] .

وبقوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالا يعلم » .

قال السيوطى بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التى لابد منها للمفسر « ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول : هذا شىء ليس فى قدرة الإنسان وليس الأمر كما ظننت من الاشكال ، والطريق فى تحصيله إرتكاب الأسباب الموجة له من العمل والزهد[3] .

---

(١) الاسرائيليات والموضوعات للشيخ أبو شهبة ٥٢

(٢) البقرة ٢٨٢

(٣) الاتقان ٢/١٨٠—١٨٢

قال فى البرهان : « أعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا تظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة ، أو كبر ، أو هوى أو حب دنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان ، أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض »[1] .

فهذه العلوم التى هى كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها فمن فسر القرآن بدونها كان مفسراً بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه ، والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالإكتساب ، واستفادوا العلوم الأخرى من النبى ﷺ .

آداب المفسرين

بجانب العلوم التى ذكرناها كشرط لتأهيل المفسر لكتاب الله هناك أيضاً آداب ينبغى على المفسر أن يلتزم بها وأن يجعلها نصب عينيه وهى لا تقل فى أهميتها عن العلوم التى ذكرناها من قبل وهذه الآداب نجملها فيما يأتى :

١ ــ صحة الاعتقاد ، ذلك أن من كان فى قلبه زيغ فإنه يتعسف فى تأويل آيات الله حتى تتفق وعقيدته وهذا ما فعله المبتدعة الذين قعدوا قواعدهم أولا ثم فسروا آيات الله وما يتفق وما وضعوه من أصول ومبادىء ، فالعقيدة السليمة لها أثرها فى نفس صاحبها وشتان بين منهج السنة فى تفسير القرآن الكريم ومنهج المذاهب الأخرى : السنى يقعد

---

(١) البرهان ٢ : ١٤٣

ويؤسس مبادئه من القرآن فالنص الإلهى عنده أولا وقبل كل شيء، ثم يستنبط منه بقدر طاقته البشرية على عكس الشيعى المفسر والمعتزلى المفسر أيضاً. فهؤلاء وضعوا أصولا لمذاهبهم ثم تعسفوا فى تأويل آيات الله حتى تخضع لمبادئهم وأصولهم وهذا الاتجاه له خطورته فهو يبعد المسلم عن الإخلاص والتواضع أمام مراد الله.

وما حلت النكبات بالعالم الإسلامى إلا بعد ان صار القرآن تابعاً والأصل أن يكون متبوعاً.

٢ — صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد قال تعالى:

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[1].

٣ — أن يكون بعيداً عن التعصب المذهبى فالمفسر ينبغى عليه أن يحق الحق لذاته بعيداً عن هواه وميوله فلو وجد الحق بجانب من يخالف المذهب رجح قوله وارتضاه وهذا حال المنصفين للحق.

٤ — تحرى الصدق والضبط فى النقل فلا يتكلم أو يكتب إلا بعد أن يتثبت لما يقوله أو يرويه وقد وقع بعض المفسرين فى أخطاء وهى تعود إلى عد الآيات والدقة.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٩

أقسام التفسير

١ — التفسير بالمأثور :

المأثور فى اللغة اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً من باب قتل ونقلته والأثر بفتحتين : أسم منه . وحديث مأثور أى منقول[1] .

التفسير بالمأثور فقد عرفه العلماء بأنه ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته ، وما نقل عن رسول الله ﷺ وما نقل عن الصحابه رضوان الله عليهم .

وأما ما نقل عن التابعين ففيه خلاف فالبعض يعده من قبيل المأثور فقد درج على ذلك ابن جرير الطبرى وهو شيخ المفسرين بالمأثور قاطبة وسار على ذلك أيضا الكثير من المفسرين الذين أتوا بعده كالحافظ ابن كثير والبغوى وابن عطيه وغيرهم ومعنى ذلك واستنتاجا من هذا التعريف نقول :

ان التفسير بالمأثور يشمل تفسير القرآن بالقرآن ، وما نقل عن النبى ﷺ وما نقل عن التابعين رضوان الله عليهم وهاك بيان كل نوع من هذه الأقسام التى ذكرت فى التعريف .

٢ — تفسير القرآن بالقرآن :

جاء فى مقدمة تفسير القرآن للحافظ ابن كثير قوله « فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير ، ؟ فالجواب أن أصح الطرق فى ذلك

---

(١) المصباح المنير مادة أثر

أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضع آخر[١] .

ويقول الإمام الزركشى فى كتابه العظيم البرهان: أحسن طرق التفسير ان يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فقد فصل موضع آخر وما اختصر فى مكان فإنه قد بسط فى آخر[٢] .

وما قاله ابن كثير وما قاله أيضا الزركشى هو الحق بعينه فالذى يتدبر آيات الله يجد أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فما جاء موجزاً فى مكان قد يبسط فى مكان آخر وما أجمل فى موضع قد يبين فى موضع آخر وما جاء عاماً فى آية قد يأتى له التخصيص فى آية أخرى ، وما جاء مطلقا فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحيه أخرى .

ومن هنا كان من اللازم على كل من يريد أن يفسر كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولا فهو المصدر الأول لتفسير القرآن على وجه الإطلاق وما ينبغى أن يتخطى هذا المصدر لغيره قبل ان ينظر فيه ، وكما يقول فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبى رحمه الله معللا ذلك بقوله «لأن صاحب الكلام أدرى بمعانى كلامه وأعرف به من غيره»[٣] .

فعلى المفسر أولا أن ينظر فى القرآن فيجمع ما تكرر منه فى موضع واحد ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزاً وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملا وليحمل المطلق على

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣

(٢) البرهان ٢/١٧٥

(٣) التفسير والمفسرون ١ : ٣٧

المقيد والعام على الخاص وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن[1] .

وقد يعتقد البعض أن تفسير القرآن بالقرآن أمر يسير لأنه يعتمد على النقل البحت ، وهذا وهم فتفسير القرآن بالقرآن أمر يعتمد على فكر ثاقب وعمق فى التفكير وإعمال العقل فى آيات الله بتدبر ونظرة فاحصة .

٢ — تفسير القرآن بالسنة

والسنه النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام هى الأصل الثانى للإسلام ، وتأتى فى المرتبه التالية للقرآن ، لانها بيان وتوضيح وتفسير لما جاء فى فى القرآن الكريم قال تعالى — مخاطبا — الرسول — ﷺ — : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[2] ، وقال جل شأنه : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[3] ، وقال — عز من قائل — (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا »[4] .

وايضا ما روى عن المقدام بن معدى كرب أن رسول الله ﷺ قال « إلا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه إلا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما

---

(١) نفس المرجع ١ : ٣٧

(٢) النحل ٤٤ (٣) النحل ١٤

(٤) الحشر ٧

(٥) المراد السنن والأحاديث التى قالها هـو ﷺ يوحى من الله

وجدتم فيه من حرام فحرموه إلا لا يحل الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها . من نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فعليه أن يعاقبهم بمثل قراه »[1] .

ويفهم من هذا أنه لا يتأتى أن يقتصر على القرآن الكريم فقط. بل يؤخذ بالقرآن وبالسنة معا فكلاهما وحي من الله سبحانه والذين يحاولون التفرقة بين القرآن والسنة كمصدر للهداية والتشريع إنما يقومون بهدم الإسلام عروة عروة أما عن سذاجة وجهل وإما عن عمد وقصد أسلوب خبيث يجب أن يحارب وأن يعوز من يقول بذلك .

روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل « إنك رجل أحمق أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال أتجده في كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وإن السنة تفسر هذا .

وقال الإمام أحمد بن حنبل ان السنة تفسير الكتاب وتبينه[2] .

---

(١) رواه أبو داود في سننه

(٢) اعلام المحدثين د محمد أبو شهبه ٩

٣ — أقوال الصحابة والتابعين كمصدر أصيل

من مصادر التفسير

لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاء عصر الصحابة — رضوان الله عليهم — فساروا على هدى الرسول ﷺ فى كل شىء فى العلم والعمل معاً .

وفى مجال فهم القرآن وتفسيره كان الصحابة فى عصر الرسول ﷺ كثيراً ما يلجأون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لكى يتعلموا منه القرآن ويتدبروا آياته ويفهموا معانيه ، ويقفوا على أسراره ، وفى ذلك .

يقول أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان ابن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً »[1] .

وكما يقول القرطبى — فى هذا الصدد — « ذكر أبو عمر والدانى فى كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبى : أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً »[2] .

وبعد وفاة الرسول ﷺ كان هؤلاء الصحابة الذين أخذوا عنه عليه الصلاة والسلام القرآن علماً وعملا مرجعاً أساسياً فى تفسير القرآن الكريم

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير ٣٥

(٢) تفسير القرطبى ١/٩

لأنهم — كما يقول ابن تيمية وتلميذه ابن كثير أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن الأحوال التى اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه[1] .

وكان منهج الصحابة فى التفسير يقوم على أسس ثابته ، فهم يلجأون إلى القرآن نفسه أولا ، فإن لم يجدوا لجأوا إلى السنة ، فإن لم يجدوا لجأوا إلى الاجتهاد والرأى . وقلما كانوا يلجأون إلى أهل الكتاب فى هذا المجال وهذا المنهج الذى سار عليه الصحابة — رضوان الله عليهم لم يكن خاصا بالتفسير فقط ، بل كان عاماً فى شتى شئون حياتهم العلمية على السواء يدلنا على ذلك حديث معاذ ابن جبل فقد قال الرسول الله ﷺ له حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد ، قال اجتهد رأيى قال : فضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »[2] .

ثم إننا نلاحظ أن اختلاف الصحابة فى الرأى لا يكاد يذكر فى عهد الرسول ﷺ ، وكيف يختلفون والرسول عليه الصلاة والسلام ومنهم وبين ظهرانيهم ؟ بيد أن الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ بدأوا يختلفون فى الرأى بالنسبة لبعض أمور الدين ، وبخاصة فى المسائل التى لم يرد لها نص فى الكتاب ولا فى السنه ، إلا أن الخلاف أو الاختلاف كان سرعا

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص ٩٥ وتفسير ابن كثير ١٣/١ ط الشعب .

(٢) قال ابن كثير هذا الحديث فى المسانيد والسنن بإسناد جيد انظر تفسير ابن كثير ١٣/١

ما يحسم فيما بينهم ولقد كانت خلافة الرسول ﷺ هي أول مظاهر هذا الخلاف أو الاختلاف .

ولما منع قوم الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ اختلف عمر بن الخطاب مع خليفة رسول الله أبي بكر الصديق في مسألة قتالهم وهل قتالهم يجوز شرعا أم لا ؟ وفي معركة (اليمامة) احدى المعارك التي خاضها المسلمون ضد المرتدين استحر القتل بقراء القرآن وحملته ، وعلى إثر ذلك أشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن خوفا من ضياعه بموت القراء في مواطن القتال ، فاستدعى أبو بكر الصديق زيد بن ثابت وكلفه بجمع القرآن ، وهذا الموضوع أيضاً على الرغم من أهميته البالغة في الدين — لم يخل من الاختلاف في الرأي في بدايته بين أبي بكر وعمر تارة وبين أبي بكر وزيد تارة أخرى كما ورد في الصحيح والذين اشتهروا بتفسير القرآن من الصحابة .

كما يقول السيوطي عشرة وهم الخلفاء الراشدون وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير[١] .

كما يذكر السيوطي أنه قد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء اليسير من التفسير كأنس بن مالك وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص[٢] .

وكل ما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم من أقوال في التفسير فذلك مصدر أصيل من مصادر التفسير يجب على المفسر لكتاب الله تعالى أن يرجع إليه عند ما يعوده القرآن والسنة قال القاضي عبد الحق بن عطية « وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم »[٣] .

---

(١) الاتقان ٢/١٨٧ (٢) الاتقان ٢/١٨٩

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦٤